الثقافة الإسلامية

(٢٥)

في علاقة النصر بالله

الإصدار الثاني

مع إضافات وتصحيح وتنقيح

محمّد مهدي الآصفي

مختارات منتقاة من محاضرات ومقالات

ومؤلفات الشيخ محمد مهدي الآصفي

- ٢٥ -

❊ ❊ ❊

اسم الكتاب: .... في علاقة النصر بالله

المؤلف: .... محمّد مهدي الآصفي

الطبعة الثامنة: .... ١٤٣٢ هـ ـ ٢٠١٠م

الكمية .... ٥٠٠٠ نسخة

المطبعة:...... مطبعة مجمع أهل البيت عليهم السلام النجف الأشرف



﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّـهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾

محمد: ٧

الإهداء

قـوام كـلّ ثـورة: قطـرات مـن الـدم، وقطـرات مـن الـدمع، وقطرات من الحبر. وإذا كانـت الأيـام حبسـتني أن أبـذل فـي الثورة الإسلامية المباركة قطرات من الدم، فهـا هـي قطـرات من الحبـر ممزوجـة بقطـرات مـن الـدمع أُهـديها إلـى الإمـام الخميني رحمه الله قائد الثورة، وإلى أرواح الشهداء الأبـرار، الـذين بذلوا مهجهم في هذا السبيل.

محمد مهدي الآصفي

في علاقة الثورة بالله

الثورة الإسلامية في إيران، كانت ثورة مباركة بالمعنى الدقيق والواسع للكلمة، فقد أكسبت هذه الثورة الدعاة إلى الله تعالى بفيض من العطاء والتجارب الخصبة والدروس والعبر والأفكار والمفاهيم.

ولقد كانت هذه الدروس والأفكار والمفاهيم قائمة في تراث الدعوة، فيما يحكي الله تعالى للعاملين في سبيله من قصص الماضين في الصراع بين الحق والباطل، وكانت قائمة في نفوسهم ووعيهم وقلوبهم، لكنها كانت نظريات وأفكاراً، آمنّا بها إيماناً نظرياً، فتحولت هذه النظريات التي كنا قد آمنّا بها من قبل إلى واقع حي متحرك، نلمسه، ونراه، وتملأ نفوسنا وتعمر قلوبنا، وجسّدته الثورة الإسلامية. ومنحته الحركة والحياة والدم.

وأسأله تعالى أن يوفقني في هذا المؤتمر المبارك[١] ـ الذي شاء الأخوة المؤمنون أن يقيموه تحت شعار (الدعوة إلى الله) ـ أن أستخلص لكم أهم هذه الدروس والأفكار والمفاهيم.

وأول هذه الدروس وأهمها في نظري... أنّ الثورة شقّت لنا مسلكاً جديداً لمعرفة الله تعالى من خلال الأحداث السياسية في الكون، والصراع القائم بين الإسلام والكفر في العالم والتاريخ...

فإن لمعرفة الله تعالى حقولا وآفاقاً ومسالك واسعة... ومن هذه الآفاق والحقول والمسالك معيّة الله تعالى للمؤمنين في معركتهم الضارية ضد الكفر.

وليس من شك أن لإحساس المؤمنين بمعيّة الله ونصر الله تعالى لهم قيمة كبيرة في دعم القلّة المؤمنة، وشد صفوفهم

(١) القي هذا البحث في المؤتمر السنوي لرابطة الشباب المسلم في لندن عام ١٩٧٩.

ودعمهم، ورفع معنوياتهم. ويولّد هذا الإحساس لدى الداعية شعوراً بالقوة والاستعلاء في ساحة المعركة، فهو لا يقاتل وحده، وإنما يقف في الساحة ويقاتل، ويهاجم، ويدافع، ومعه الله تعالى.

والله تعالى، في عمق وعي المؤمن وقلبه، أكبر من أي قوة وأقوى من أي طاغوت مهما بلغت قدرته وشوكته. والمؤمنون يرددون هذا المفهوم ضمن شعار (الله أكبر) في كل يوم في صلواتهم عشرات المرات.

وهو يرسخ في نفس الإنسان المؤمن إيماناً لأحد له بعظمة الله تعالى وجلاله وكبريائه وقوته وعزّته وعظمته اللاّمتناهية، وتتضاءل أمام هذا الشعار قوة الطغاة وشوكتهم.

فتنقلب العقيدة، وينقلب الشعار، وتنقلب الصلاة إلى شعور بالقوة والعزّة.

وكذلك كانت الصلاة، وشعار، (الله اكبر) في الصلاة تمنح المؤمنين قوة، وعزة، وصموداً، واستقامة، في ساحات

المعركة.

فكيف اختفت حيوية هذا الشعار في حياة الأمة اليوم، وكيف فقدت الصلاة دورها في ساحات القتال... وكيف فقدت الصلاة هذه القوة والعزّة التي كان يهابها أعداء الله... إنّ لذلك قصة أريد أن أتحدث عنها في هذا اللقاء.

فشل الاستعمار في فصل الدين عن السياسة نظرياً، على الأقل، في الأوساط الواعية المؤمنة من المسلمين، وظلت الطبقة الواعية المؤمنة من هذه الأمة تؤمن بأن السياسة شأن من شؤون الدين، وأنه في الصميم من الدين.

ولكن مما لا شك فيه أن الاستعمار نجح في فصل العقيدة عن السياسة حتى على الصعيد النظري في هذه الأُمّة.

وفي رأيي أن فصل العقيدة عن السياسة أخطر من فصل الدين عن السياسة.

فأصبح المسلمون يفهمون السياسة بصورة مستقلة تماماً عن الناحية الإيمانية والاعتقادية، ويفهمون العقيدة كذلك

بمعزل عن السياسة على شكل حقلين منفصلين.

وكأنّ السياسة تجري في عالم مستقل عن مشيئة الله تعالى، وفق قوانين ومعادلات بشرية، وبموجب ميزان القوى السياسية والاقتصادية والعسكرية، وليس لله تعالى مشيئة وإرادة في عالم السياسة.

ولكي أفتق الجرح الذي تعاني منه الأُمّة أحب أن أقول: في عقيدة الكثيرين: إن الله تعالى خلق السماوات والأرضين والمجرات والكون الكبير، وخلق البحار والجبال والأنهار وبأمره تعالى ينزل الغيث وتخضر الأرض وتثمر الأشجار، وتتقلب الفصول، وله في كل ذلك الأمر من قبل ومن بعد.

ولكن السياسة تجري حول محور آخر، هو محور القوتين العظميين[١] وأحلافهما، وشبكاتهما التجسسية، وقواتهما العسكرية، وقدراتهما الاقتصادية، وسياستهما، فإذا

---

(١) ألقيت هذه المحاضرة قبل سقوط الاتحاد السوفيتي.

اتفقتا فالويل للعالم الثالث منهما، وإذا اختلفتا فالويل للبشرية... وهما إلى الوفاق والتفاهم أقرب في الغالب منهما منه إلى الاختلاف.

وأما العالم الثالث، أو ما يسمونه كذلك، فلا قيمة له في المعادلات السياسية، ولا يشكل قوّة واعتباراً.

وليس للإيمان بالله تعالى وقدرته وقوته وعظمته شأن في هذا العالم، فهو تعالى القوي المتعال، ولكن السياسة لها شأنها الخاص ومعادلاتها الخاصة، ولا دخل لهذه العقيدة في المعادلات السياسية.

هذه هي الحقيقة المرة بكل مرارتها وقسوتها.

وكيف أصبحنا كذلك:

بكل بساطة تعلمنا السياسة في المدارس الغربية والشرقية، وأخذنا نفهم السياسة ونناقشها ونحلل ونفسّر الأحداث السياسية. وأحياناً فيما بيننا نحن المؤمنين. وفي مجالسنا الخاصة بهذه الذهنية.

وهذه المدرسة السياسية التي أثرت في نفوسنا وفي فهمنا للسياسة من حيث لا نشعر، مدرسة يهودية قديمة معروفة، كانت ترى أن الله تعالى خلق الكون والإنسان، ثمّ تخلّى عن الحكم والقبض والبسط والأمر في حياة الناس وأصبح الإنسان هو الذي يحكم، ويقبض ويبسط، ويأمر في حياته. يحدّثنا عنهم القرآن الكريم في سورة المائدة:

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ، بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾[1].

وتحولت هذه العقيدة اليهودية القديمة إلى أساس علماني في فهم السياسة، وتحليلها، ومناقشتها، وترقب النتائج السياسية والتنبؤ بها. ثم تسلّل هذا المفهوم العلماني اليهودي عن السياسة إلى مجتمعنا الإسلامي، وأصبحنا نتعامل معه كحقيقة ثابتة لا نقاش فيها.

---

(١) المائدة: ٦٤.

ومن الشواهد على ذلك الأحداث التي سبقت الدولة الكريمة المباركة في إيران.

فقد كنت أتوخّى أن أفهم رأي المثقفين الواعين من المسلمين في خضم الأحداث، فلم أجد إلا قلّة قليلة كانت واثقة بالنصر، وأكثر من رأيت من المثقفين كانوا يرون أن الورقة الرابحة لأمريكا على كل حال، وأن نتائج هذه الحركة لا تتخطى سقوط وزارة وقيام أخرى، وأن هذه الثورة لا يمكن أن تتجاوز حدود الوفاق الدولي القائم بشأن إيران، وأن أمريكا لن تتخلّى عن إيران وعن النظام الملكي، وأن القضية لا تتجاوز محاولة أمريكية لتأديب الشاه وتحجيم سلطاته، وأن رأس الحبل بيد اليسار، والمؤمنون هم الضحايا، وأن مراجع الدين ينقصهم الوعي السياسي وقضيتهم خاسرة بالتأكيد، وأن ثورة الشارع لا يمكن أن تزعزع أركان النظام الشاهنشاهي العتيد، وأن هناك لعبة خفية تكشفها الأيام فيما بعد، وأن أمريكا لا يمكن أن تسكت عن آبار النفط

وقواعدها العسكرية الضخمة في إيران، وأن روسيا لا يمكن أن تسكت عن الغاز ومصالحها في إيران وأنّ، وأنّ...

وهذا كله صحيح، على اختلاف مذاهب الناس في السياسة، لو كان الأساس لفهم السياسة: ﴿ **يَدُ اللّهِ مَغْلُولَةٌ** ﴾. أما عندما ننطلق من منطلق: ﴿**بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ**﴾ فإن الأمر يختلف تماماً، والمعادلات السياسية وموازين القوى تتطاير وتتهاوى، ويتضاءل دورها وقيمتها.

ولست أريد أن أناقش، ولست بصدد أن أنتقد، وأرى أن هذه الحالة الذهنية هي نتيجة الاحتكاك المستمر بالصحافة والإذاعة العلمانيين، وإنما أريد أن نتلافى ما سبق بتكوين ذهنية إسلامية قرآنية في فهم السياسة.

ولسوف نرى، إن شاء الله، أن القرآن يشبع هذه القضية، ويتناولها بكل دقة واستيعاب من أطرافها، ويصنع منها نظرية متكاملة الأطراف.

وحينما يستعرض المؤمن الداعية آيات القرآن الكريم

بهذا الصدد، ويضعها في إطارها، ويربط بينها يعجب كيف غفل عن هذه الحقيقة التي يعطيها القرآن الكريم كل هذا التأكيد.

لا أريد أن أدخل في تفاصيل الآيات الإعتقادية التي نتلوها في كتاب الله، والتي يربط القرآن الكريم فيها كل شيء في هذا الكون بمشيئة الله تعالى، وأن الأمر له من قبل ومن بعد، ولا يعزب عن علمه شيء، ولا يخرج عن قبضة سلطانه خارج، ووسع كرسيه السماوات والأرض ولا يؤوده حفظهما وهو العلي العظيم... فإن ذلك حديث يطول أمره وإنما أدخل مباشرة، فيما وعد الله تعالى به المؤمنين من النصر، وأنه تعالى لن يتخلّ عنهم في صراعهم مع الباطل، وأن قوة الباطل وشوكته وسلطانه لن تؤثر في نتيجة المعركة بحال من الأحوال، ولن تحول دون نصر الله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ

أَقْدَامَكُمْ﴾(١).

﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾(٢).

﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ﴾(٣).

﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾(٤).

﴿بَلِ اللّهُ مَوْلاَكُمْ، وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ﴾(٥).

﴿وَإِن تَوَلَّوْاْ فَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ مَوْلاَكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾(٦).

﴿وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ

---

(١) محمد: ٧.

(٢) غافر: ٥١.

(٣) التوبة: ١٤.

(٤) الحج: ٤٠.

(٥) آل عمران: ١٥٠.

(٦) الأنفال: ٤٠.

النَّصِيرُ﴾[١].

﴿فَإِنَّ حِزْبَ اللّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾[٢].

﴿وَكَفَى بِاللّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللّهِ نَصِيرًا﴾[٣].

﴿وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾[٤].

﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللّهِ وَاللّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾[٥].

﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا * إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾[٦].

﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾[٧].

---

(١) الحج: ٧٨.
(٢) المائدة: ٥٦.
(٣) النساء: ٤٥.
(٤) الفرقان: ٣١.
(٥) البقرة: ٢٤٩.
(٦) الإنشراح: ٥-٦.
(٧) العنكبوت: ٦٩.

ويقسم الله تعالى لنبيه أنه لم يتخلّ عنه:

﴿وَالضُّحَى* وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى * مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾[(١)].

ويجعل الله تعالى نصر المؤمنين حقاً عليه عزّوجلّ:

﴿كَتَبَ اللَّهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾[(٢)].

﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾[(٣)].

﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ* وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾[(٤)].

ولكي تكون القضية حيّة تعيش في حياة الدعاة يذكر لهم القرآن نماذج من تاريخ الصراع بين الحق والباطل، حيث تقف الأحزاب أمام حزب الله، ويواجه أنصار الطاغوت

---

(١) الضحى: ١ـ٣.
(٢) المجادلة: ٢١.
(٣) الروم: ٤٧.
(٤) الصافات: ١٧١ـ١٧٣.

أنصار الله تعالى، ويعلن هذا الإنسان الضعيف الحرب على الله تعالى، ويكيد ويمكر بحزب الله.

وينظر الإنسان إلى هذا التقابل في المكر والكيد بين الله تعالى القوي العزيز، وخلقه الطغاة الضعفاء، فلا يملك نفسه من أن يبتسم، ولا يتردد لحظة واحدة في نتيجة هذه المقابلة:

﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللّهُ وَاللّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾[(١)].

﴿ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ﴾[(٢)].

﴿وَاللّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾[(٣)].

ثم يذكر تعالى لعباده أمثلة وشواهد من نصره لأنبيائه وعباده الصالحين في حربهم وصراعهم مع الطاغوت:

---

(١) الأنفال: ٣٠.

(٢) الأنفال: ١٨.

(٣) يوسف: ٢١.

﴿وَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ﴾(١).

﴿فَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ﴾(٢).

﴿وَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ﴾(٣).

وعن أنصار المسيح عليه السلام يقول تعالى:

﴿فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾(٤).

ثم يذكّر النبي صلى الله عليه وآله وسلم والمؤمنين بما سبق من تأييد الله تعالى له وللمؤمنين في صراعهم المرير مع المشركين:

﴿هُوَ الَّذِيَ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾(٥).

﴿وَاذْكُرُواْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الأَرْضِ تَخَافُونَ

---

(١) هود: ٥٨.

(٢) هود: ٦٦.

(٣) هود: ٩٤.

(٤) الصف: ١٤.

(٥) الأنفال: ٦٢.

أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[١].

﴿إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُواْ السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللّهِ هِيَ الْعُلْيَا﴾[٢].

﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾[٣].

﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ﴾[٤].

هذه هي الحقيقة الربانية الكبرى التي كدنا أن ننساها أو نسيناها بالفعل، لولا رحمة من الله.

---

(١) الأنفال: ٢٦.

(٢) التوبة: ٤٠.

(٣) آل عمران: ١٢٣.

(٤) التوبة: ٢٥.

فكاد المؤمنون أن يتصوروا أنهم في ساحة الصراع مع الكفر، وحدهم، وقد كان الله معهم في مواقفهم حين البأس، وفي ساعات المحنة، وداخل الزنزانات، وكان الله معهم في غرف التعذيب، وبعين الله كانوا يتحملون العذاب والاضطهاد، والسياط، والصعقات الكهربائية التي كان الجلاوزة يصبونها على أجسامهم.

وليت المؤمنين كانوا يعلمون أنّ عذابهم بعين الله الرحيمة، وأن الله لو شاء لأوقف قلوب معذبيهم وشلّ أيديهم، وأعمى عيونهم عنهم، وأن اليد التي تعصر قلوبهم يد أرحم الراحمين، وأنهم يألمون ويضجون بسمع الله، ويتحملون السياط بعين الله، إلاّ أن ذلك خير لهم لو كانوا يعلمون، ولو كانوا يعلمون ما ادخر الله لهم من النعيم بهذا العذاب لتمنوا أن يطول بهم هذا العذاب إلى قيام الساعة.

وأعدائهم يتعذبون، ويعانون كما يعاني المؤمنون، وتعتصر الآلام قلوبهم، كما تعتصر قلوب المؤمنين، ويفقدون

أعزتهم كما يفقدون. وتلك سنة الله في الذين آمنوا والـذين كفـروا وشـاقوا الله ورسـوله مـن غيـر فـرق إلاّ أن المـؤمنين يرجون مـن الله مـا لا يرجـون، ويجـدون مـن نصـر الله تعـالى وتأييده، ما لا يجدون.

﴿إِن تَكُونُواْ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللّهِ مَا لاَ يَرْجُونَ﴾(١).

وأن طريق ذات الشـوكة الـذي أراده الله تعـالى لهـم إلـى النصر خير لهم من أن يأتيهم النصر غنيمة باردة رخيصة.

﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللّهُ أَن يُحِقَّ الحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ * لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾(٢).

وان نصر الله تعالى ليس ببعيد عنهم لو أنهم صبروا.

---

(١) النساء: ١٠٤.

(٢) الأنفال: ٧ـ٨.

﴿أَلا إِنَّ نَصْرَ اللّهِ قَرِيبٌ﴾[١].

وتسأل كيف ينصر الله الفئة القليلة الفقيرة الضعيفة على الفئة الكثيرة الغنية القوية، على خلاف ما يتصوره الناس في موازين القوى، والمعادلات السياسية، والحسابات العسكرية والاقتصادية.

إنّ جواب القرآن الكريم واضح وبسيط، ليس فيه تعقيد الموازنات السياسية المعاصرة، والتي تعلّمناها، وتعودناها، رغماً منا، إن الجواب بسيط بساطة التوحيد، وأن في التوحيد جواباً واضحاً لكل هذه التساؤلات.

ونرجع إلى القرآن الكريم مرة أخرى، لنلمس الخطوط التفصيلية لهذا القانون.

إن أهمّ عناصر النصر أربعة: القوّة. المال. التسديد. التثبيت.

---

(١) البقرة: ٢١٤.

وإن فئة آتاها الله تعالى هذه العناصر الأربعة، لا يحول شيء بينها وبين النصر.

ولنستعرض هذه العناصر الأربعة في كتاب الله:

أهمّ عناصر النصر

العنصر الأول (القوّة):

وهي التي تملأ عيون الناس، قبل كل شيء، وتوجه أذهانهم وأفكارهم وسلوكهم. فإذا وثقنا، وآمنا بمعية الله تعالى للقلة المؤمنة، فلن تعوزها بعد ذلك قوة.

فإن ما في السماوات والأرض جند لله تعالى، يأتمر بأمره، وينتهي بنهيه،ولا يشذ عن ذلك خلق في السماء أو الأرض.

﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾(١).

﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾(٢).

﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاّ هُوَ﴾(٣).

---

(١) الفتح: ٤.
(٢) الفتح: ٧.
(٣) المدثر: ٣١.

فالبحار جند لله، تضطرب بأمر الله، وتسكن بأمر الله، فإذا جاء أمر الله تعالى، فلا تذر أحداً من الظالمين، واستمع إليه تعالى يحكي لنا قصة فرعون وجنده:

﴿وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لا يُرْجَعُونَ * فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾(١).

﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾(٢).

ولله جند من أمطار السماء وينابيع الأرض، فإذا أذن الله لها أمطرت، وتفجرت، وتموجت الأرض بها، وأغرقت من كان فيها من الظالمين. فاستمع إليه تعالى في قصة نوح:

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ

---

(١) القصص: ٣٩ـ٤٠.

(٢) طه: ٧٨.

وَازْدُجِرَ* فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ* فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاء بِمَاء مُّنْهَمِرٍ* وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاء عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ... * وَلَقَد تَّرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾(١).

ولله جنود من الريح، لا تبقي ولا تذر، إذا أذن لها الله تعالى:

﴿كَذَّبَتْ عَادٌ، فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ * إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ * تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ * فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾(٢).

وإن من جند الله الصيحة، وما أدراك ما الصيحة، أرسلها الله على ثمود فجعلهم كهشيم المحتظر.

---

(١) القمر: ٩ـ١٢و١٥.

(٢) القمر: ١٨ـ٢١.

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ﴾(١).

وأرسلها الله تعالى على قوم شعيب، بعد أن أنجى شعيباً والذين آمنوا معه.

﴿وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُواْ الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ * كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا أَلاَ بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾(٢).

ولله جنود من الحجارة، تمطرها السماء، إذا أذن الله تعالى لها. هلك بها قوم لوط:

﴿فَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ* مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ

---

(١) القمر: ٣١.

(٢) هود: ٩٤ ـ ٩٥.

مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾(١).

ولله تعالى جنود من الطير، يرسلها على الظالمين متى شاء: **﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ * أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ* وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ * تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ * فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾**(٢).

ولله تعالى جنود من القمل، والضفادع، والجراد، والطوفان، يرسلها متى يشاء على الظالمين:

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ﴾(٣).

ولله جند من الصاعقة يرسلها متى شاء. وقد أرسلها على ثمود:

---

(١) هود: ٨٢ ـ ٨٣.

(٢) سورة الفيل.

(٣) الأعراف: ١٣٣.

﴿فَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾(١).

ولله جنود من الملائكة، لا نراها، تدخل مع الفئة القليلة في المعركة وتدافع عنها، وتحفظها بأمر الله. كما أمر الله الملائكة في معركة بدر أن ينزلوا ساحة القتال إلى جانب المسلمين:

﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلآئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُواْ الرَّعْبَ فَاضْرِبُواْ فَوْقَ الأَعْنَاقِ وَاضْرِبُواْ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾(٢).

وما أروع هذا الإمداد الإلهي في المعركة. يرسل الملائكة مع المؤمنين، ثم ينبؤهم أنه معهم، فتتلاحم هذه المعية المزدوجة في مشهد إيماني رائع، في ساحة القتال، معية

---

(١) الذاريات: ٤٤.

(٢) الأنفال: ١٢.

الملائكة للمؤمنين، ومعية الله تعالى للملائكة.

وكيف تتكافأ أطراف هذه المعركة، والله والملائكة، وجند الله في الأرض والسماء مع الفئة القليلة، وليس مع الفئة الكثيرة إلا نفر ضعاف، وحفنة من مال وحفنة من الأسلحة.

وهذه هي القوة التي يحسب الناس لها كل حساب في المعادلات السياسية.

وهل يتصور الناس قوة أعظم من هذه القوة، وجنداً أقوى من جند الله، وسلطاناً أقوى من سلطان الله.

ومع ذلك فإننا نسقط في كثير من الأحيان حساب هذه القوة الكبرى في الكون من المعادلات السياسية، عندما نفكر في السياسة، ونحلل الأحداث، ونتنبأ بالمستقبل، ونحسب لمستقبل الدعوة حسابها.

العنصر الثاني (المال):

مهما تكن الفئة الكثيرة غنيّة، تملك ناصية الذهب والفضة، فإن الفئة القليلة تتمتع بتأييد الله تعالى:

﴿وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَفْقَهُونَ﴾.

ولقد كان المنافقون يتصورون أنهم لو حاربوا الدعاة في أرزاقهم، وقطعوا عنهم المال تنضب الدعوة في نفوسهم، وتنقطع علاقتهم بالدعوة، وذلك في إطار تصوراتهم المادية الغبية الضحلة.

﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لا تُنفِقُوا عَلَى مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنفَضُّوا﴾.

فيرد الله تعالى عليهم:

﴿وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَفْقَهُونَ﴾[1].

العنصر الثالث (التسديد والتعليم والهداية):

ثم ماذا تحتاج الفئة القليلة بعد القوة والمال؟ إنها تحتاج

---

(١) المنافقون: ٧.

إلى التسديد والتعليم والهداية، لتعلم ماذا تعمل؟ وكيف تتحرك؟ وكيف تدعو الناس إلى الله تعالى؟ ومتى تختفي؟ ومتى تظهر؟ ومتى تتكلم بهمس؟ ومتى تصرخ بالحق جهاراً؟ ومتى تتجنب الموجة؟ ومتى تتصدى للموجة؟ ومتى تواجه الطغاة بعنف وقوة؟ ومتى تكلمهم برفق ولين؟ ومتى تتحمل الظلم وتصبر؟ ومتى تتصدى وتقاتل؟ وكيف تتعامل مع الناس؟ وكيف تجتذب الفارين من الله تعالى إلى الله؟ وكيف تداري الناس؟ وكيف تدعو إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة؟ وكيف تتصرف تجاه الأحداث؟ وفي ظلال الطغيان تصمد وتصبر أم تهاجر وتفر بدينها؟ ومتى تنزوي داخل البيوت؟ ومتى تخرج إلى الشارع؟ ومتى تعلن الحرب وتفجر الشارع؟ وكيف تنظم الناس؟ وكيف تستقطبهم إلى جانبها؟ وكيف تكسب الرأي العام لصالحها؟ ومتى تظهر للناس مظلومة مضطهدة؟ ومتى تظهر قويةً عزيزةً؟ وكيف تقاتل؟ وكيف تعدّ للقتال؟ وكيف تخطط

للمواجهة والحرب؟ وكيف تلقي الرعب في قلوب الأعداء؟ وكيف تمكر بهم؟ وكيف تستأصلهم؟... إلى آخر هذه التساؤلات.

ولا شك أن هذا كله علم قائم بالذات، وهو علم الدعوة، ونور يقذفه الله في نفوس الدعاة إليه، يمشون به في الناس، ويتعاملون به مع الناس، ولا شك أن على الدعاة إلى الله تعالى أن يكتسبوا هذا العلم، ويتزودوا بتجارب من قبلهم، ولا شك أنهم في حركتهم الكبرى في التاريخ يصيبون الهدف حيناً، ويخطأون آخر، وأن أعداء الإسلام في المقابل يفرّغون لهذه المهمة في حركتهم المعادية لله ولرسوله، أجهزة وأشخاصا ودراسات واسعة.

ولابد للقلة المؤمنة أن تتفرغ لهذا الجانب وتعطيه اهتمامها، كما لابد لها أن تولي جانب القوة والمال أيضاً اهتمامها، ولا تتركهما للصدفة...

ولكن، مما لا شك فيه، مع ذلك كله، أن الله تعالى لن

يترك القلة المؤمنة لجهدها وعملها في هذا الحقل فقط، ولـن تتخلّ عنهم المعية الإلهية في التسديد والتعليم، كما لم تتخلّ عنهم في ساحات القتال. والقرآن الكريم صريح في ذلك:

﴿وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾[١].

﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾[٢].

وكل ما يحتاجه الداعية في حركته هو أن يشير عليه احد بالرأي الصحيح والدلالة، ويسدده في الرأي، ثم يضم يده إلى يده، وقوته إلى قوته، ويعينه على حمل ما لا يطيق من حمله ومسؤولياته وقد ضمن الله له كلاّ من هذين الأمرين: «الدلالة» و«العون». فضمن تعالى له الدلالة: (**لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا**) والعون :**﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾**.

---

(١) الفرقان: ٣١.

(٢) العنكبوت: ٦٩.

ويرزق الله تعالى الدعاة إليه عزّ وجلّ نوراً يمشون به في الناس، يعرفون به كيف يتعاملون مع الناس من أعدائهم وأصدقائهم، والمتفرجين على الطرفين، وكيف يتعاملون مع القلوب، والعواطف، والعقول في الوقت الذي يسلب تعالى هذا النور من القلوب الكافرة.

﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾[1].

العنصر الرابع (التثبيت والثقة بالنصر):

من عناصر النصر التثبيت والثقة بالنصر، وارتفاع الحالة المعنوية في نفوس الدعاة. وهذه الأمور من خصائص الدعاة المؤمنين بالله. والنفوس المؤمنة هي وحدها التي يمنحها الله تعالى الثقة، والطمأنينة، والسكينة، والاستقرار، والثبات.

---

(١) الأنعام: ١٢٢.

﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا﴾(١).

﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾(٢).

﴿ثُمَّ أَنزَلَ اللّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾(٣).

وهذه هي السكينة التي تمنح الإنسان استقرارا في النفس، وسكوناً لها من القلق والاضطراب، في أحرج ساعات المحنة.

وبالإضافة إلى ذلك فإن الله تعالى يمنح المؤمنين الدعاة ثباتاً على أرض المعركة، وثباتاً في الموقف، وثباتاً في الإيمان، وثباتاً في القول، وثباتاً في الدنيا، وثباتاً في الآخرة.

﴿يُثَبِّتُ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا

---

(١) الفتح: ٤.
(٢) الفتح: ١٨.
(٣) التوبة: ٢٦.

وَفِي الآخِرَةِ﴾[١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾[٢].

وليس هذا فحسب، وإنما يربط القلوب أيضاً. فإن القلوب تضعف في ساعة المحنة، ويتسرب إليها الضعف، إذا قست المحنة وطالت، فيتساقط فيها أكثر الناس قوة واستقامة، إلاّ المؤمنين، فإن الله تعالى يربط على قلوبهم.

﴿وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدَامَ﴾[٣].

فما أروع القلوب المؤمنة في ساعات المحنة، وفي ساحات القتال، وداخل زنزانات السجون، وتحت سياط الجلادين... ثابتة مطمئنةً، مرتبطةً بالله، ساكنة، مستقرةً، كأنها قدت من زبر الحديد، وأين الحديد من صلابتهم واستقرار

---

(١) إبراهيم: ٢٧.

(٢) محمد: ٧.

(٣) الأنفال: ١١.

قلوبهم؟

ومن أوضح الحقائق وابسطها أنّ أصحاب هذه القلوب لا يتخطاهم النصر، مهما طالت محنتهم وتعاظمت.

وفي قبال هذه القلوب قلوب المنافقين والكافرين والطغاة، فإنها في قمة سطوتها، واستكبارها، وتطاولها على الله ورسوله... ضعيفة، مهزوزة، مرعوبة، يساورها القلق، ولا يفارقها الخوف والاضطراب.

﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُواْ الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُواْ بِاللّهِ﴾[1].

﴿وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا، وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي

(١) آل عمران: ١٥١.

الأَبْصَارِ﴾[(١)].

ولقد حسب هؤلاء اليهود كل حساب، وحصنوا حصونهم وفق هذه الحسابات، فآتاهم الله من حيث لم يحتسبوا، فأدخل في قلوبهم الرعب، وهزمهم من حيث لم يكونوا يحتسبون.

ويصف القرآن الكريم حال هؤلاء المهزومين من المنافقين وصفاً دقيقاً في حالتي الخوف والأمن:

﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاء الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾[(٢)].

تلك الحالة النفسية لكل من المعسكرين، معسكر الدعاة إلى الله، ومعسكر أعداء الله ورسوله.

وليس ينبغي أن يخطر على بال أحد أن الأمر قد اختلف

---

(١) الحشر: ٢.

(٢) الأحزاب: ١٩.

في عصرنا، عما كان عليه من العصور السابقة، فإن الصراع بين موسى عليه السلام وفرعون، وبين نوح وقومه، وإبراهيم وقومه، ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقريش واليهود... كان محفوفاً بالنصر للمؤمنين وقد صدق الله وعده، حيث كانت الوسائل في الحرب والسلم متكافئة.

أما اليوم، وقد تسلح الطغاة بآخر ما استحدثه الإنسان من الأسلحة المدمرة والفتاكة، وانتزعوا كل شيء من أيدي المؤمنين، وفرضوا سلطانهم وقوتهم على كل جوانب الحياة، واستوعبوا كل مداخل حياة الناس، ومساربها، ومخارجها، وسلبوا عنهم كل قوة وصلاحية... فلم يبق مجال للتحرك، ولم يبق أمل في النصر.

وكيف ترى تتحول هذه القوة العملاقة إلى أيدي المؤمنين الدعاة إلى الله! وكيف يتخلص المؤمنون من إخطبوط شبكات الأمن والاستخبارات التي تضيق عليهم الخناق وتكاد أن تحصي عليهم أنفاسهم؟

إن أقصى قوة فرعون كانت في أن يطلب من السحرة أن يتحدّوا بسحرهم موسىعليه السلام. وأن يصنع له هامان صرحاً ليصعد عليه ويرى اله موسى، وإن أقصى قوة نمرود كانت في أن يصنع ناراً ليحرق فيها إبراهيمعليه السلام، وإن أقصى قوة أبي جهل كانت في حفنة من الأوباش يحيطون به، ويأتمرون بأمره.

وأما طغاة عصرنا فهم يحصون على الناس أنفاسهم، ويملكون من الأسلحة الفتاكة ما لا تبقي ولا تذر، ومن الأنظمة العسكرية والأمنية والحزبية المعقدة، ما لم يكن يخطر على بال الدعاة في العصور الأولى.

وجوابي على هذه الشبهة، وهي مع الأسف شبهة عميقة في النفوس، وإن كانت تبدو ضحلة وبسيطة... جوابي عليها شاهد من عصرنا ودليل من كتاب الله.

أما الشاهد من عصرنا فهو تحول القوة من طاغية إيران. ونظامه الرهيب، الذي كان يضرب به المثل، إلى أيدي

المـؤمنين، وانهيـار الحصـون والقـلاع الأمنيـة، والعسـكرية، والاقتصادية، التي كانت تحميه في أقل من سنة.

وأما الدليل من كتاب الله، وهو الأصل والأساس:

﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الأَرْضِ لِيُخرِجوكَ مِنْهَا وَإِذاً لاَّ يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلاَّ قَلِيلاً * سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلاَ تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً﴾(١).

﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً﴾(٢).

﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً﴾(٣).

فلن تتبدل سنة الله تعالى في نصر عباده المؤمنين، وهزيمة الطغاة الجبارين، ولن تتغير هذه السنة، ولن تتحول، ولن يؤثر عليها مـرور الـزمن... إنهـا سـنة الله، ثابتـة، مسـتقرة، وليسـت صدفة، أو خاصة من خصائص الزمان، تحدث مرّة أو مرتين،

---

(١) الإسراء: ٧٦ـ٧٧.

(٢) الأحزاب: ٦٢.

(٣) فاطر: ٤٣.

ثم تنقطع.

إنها سنّة، كما أن اختلاف الفصول في السنة سُنَّة، وكما أن شروق الشمس وغروبها سنّة، وكما أن نزول الأمطار على الأرض سُنّة، وكما أن اختلاف ألسنة الناس سُنّة.

إن سنن الله لن تتغير، ولن تتبدل، وهي جزء من حقائق هذا الكون الكبير، أودعها الله تعالى فيه إيداعاً ثابتاً.

تلك هي حقيقة النصر الإلهي للقلّة المؤمنة على وجه الأرض، وكما ترون أن المماراة في هذه الحقيقة والتشكيك فيها، مع الالتفات، مماراة في كتاب الله، وتشكيك في التوحيد.

فقد توخيت في هذا الحديث أن لا أتجاوز حدود كتاب الله. وقد رأينا أن القرآن الكريم يعد القلّة بالنصر، وعداً مؤكداً من الله، والله تعالى لا يخلف وعده، ومن أصدق من الله قيلاً.

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ

لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾[1].

ذلك وعد من الله، ثابت، مذكور في كتاب الله:

﴿وَعْدَ اللّهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللّهِ قِيلاً﴾[2].

﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لا يُوقِنُونَ﴾[3].

وبذلك فإن الإيمان بالنصر من التصديق بوعد الله، والتصديق بوعد الله من الإيمان بالله.

وهكذا نرى ببساطة: أن الإيمان بالنصر وتدخل المشيئة الإلهية لتحويل مجرى الأحداث السياسية والعسكرية والاقتصادية لصالح الفئة القليلة من المؤمنين... جزء جوهري

---

(١) النور: ٥٥.

(٢) النساء: ١٢٢.

(٣) الروم: ٦٠.

من عقيدتنا، وأساس من أسس إيماننا بالله تعالى.

ولا نستطيع نحن بحال من الأحوال أن نفصل بين عقيدتنا والسياسة.

إن فصل العقيدة والإيمان بالله عن السياسة، وتياراتها الجارفة، ومعادلاتها المعقدة جاءت في فترة غفلة من هذه الأمة، ومع كل الأسف أن الناس إستسلموا له سلوكياً ونظرياً أيضاً، وهو موضع المأساة والجرح.

وكما سبق أن ذكرت: إن الجرح الذي تركه فصل الدين عن السياسة في جسم الأمة لم يكن بعمق الجرح الذي تركه فصل العقيدة عن السياسة في حياة أمتنا.

وذلك أن الفصل الثاني يمتد بطبيعته إلى عمق النظرية والمفهوم والذهنية الإسلامية، بينما يقتصر عمق المأساة الأولى على حال المسلمين في ممارستهم الاجتماعية والسياسية، بفعل الظروف السياسية القاهرة، وتسلم لهم مع ذلك عقيدتهم وذهنيّتهم، في نطاق الطبقة الواعية من هذه الأمة.

ما هي شروط النصر

إنّ وعد الله تعالى بالنصر وعد قاطع لا يتردد فيه مؤمن، مهما قست الظروف، وامتدت المحنة، ولكن الوعد الرباني يتحقق عند توفر الشروط التي يطلبها الله تعالى منا.

وهذه الشروط هي:

الشرط الأول (مشيئة الله):

فنحن نلتقي أولا بقوله تعالى:

﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ * وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَنُرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾(١).

فهي مشيئة إلهية قاطعة، ويا لها من مشيئة مباركة. منَّ بها على المستضعفين من الرجال والنساء والأولاد، وتتحوّل بها

---

(١) القصص: ٥ـ٦.

القوة والسلطان إلى أيـدي المستضـعفين مـن أيـدي الجبـابرة والطغاة، ويمكّن الله تعالى بها لهم فـي الأرض، ثـم يشـمت بالطغاة والجبابرة الذين كـانوا يتحكمـون مـن قبـل فـي دمـاء المسلمين وأعراضهم ويستكبرون في الأرض.

انه الانقلاب الحقيقي في ميزان القوى، وفـي أمـر الإمامـة والقيادة في الأرض إنه إرادة الله: (ونريد).

ولكن إرادة الله تعالى لهـا شـروطها. ومـن لطـائف التعبيـر والسياق في القرآن الكريم فصل القضايا عن شـروطها أحيانـاً ليبعث في نفوس المسلمين الأمل، وفي آية أخرى من كتاب الله نقرأ الوعد الإلهي بالتفصيل ونقرأ شروطه بالإجمال:

﴿وَعَدَ اللَّـهُ الَّـذِينَ آمَنُـوا مِـنكُمْ وَعَمِلُـوا الصَّـالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَـبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُـمْ، وَلَيُبَـدِّلَنَّهُم مِّـن

بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾[١].

وهذه الآية الكريمة تجمل الشروط في الإيمان والعمل الصالح:

ولا شك أن الإيمان هو الشرط الأول، وهو الأساس والقاعدة لكل جوانب الشخصية المؤمنة الداعية، وهو المنطلق لأفكاره ومفاهيمه وقيمه وسلوكه.

والنصر لا يشذ عن هذه القاعدة. فإن الإيمان بالله تعالى يمنح الإنسان المؤمن الثقة، والقوة، والتوازن، والطمأنينة، والسكينة، وهي من أهم العوامل في تحقيق النصر، ولا يتحقق شيء من ذلك من دون الإيمان بالله.

يقول تعالى، فيما يثبّت به فؤاد الفئة القليلة المؤمنة، بعد نكسة أحد﴿**وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾**[٢].

---

(١) النور: ٥٥.

(٢) آل عمران: ١٣٩.

والإستعلاء الحقيقي يتحقق عندما تكون الأمة مؤمنة، وما عدا ذلك بطر، وغرور، وباطل.

ويخاطب عزّوجلّ المشركين من قريش، بقوله:

﴿وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾[١].

الشرط الثاني (العمل):

وهو شرط متشعب كثير الأطراف.

ومن أهم صفاته التقوى.

وهو إلتزام حدود الله تعالى. وقد يستغرب بعض الناس الذين لم يألفوا الفكر الإسلامي، ولم يأنسوا بالقرآن الكريم أن يكون التقوى وإلتزام حدود الله تعالى في الحلال والحرام شرط من أهم شروط النصر. ويتساءل الناس وما صلة الذنوب والمعاصي بالنصر؟

---

(١) الأنفال: ١٩.

إن الذهنية الأوروبية تقف مستفهمة عن علاقة التقوى بالنصر، ولا تفهم أن تكون هناك صلة بين هذا وذاك، و لكن الذهنية الإسلامية التي بلورها القرآن الكريم لا يستطيع أن يفصل بين أطراف الشخصية، ولا يستطيع أن يفصل بين علاقة الإنسان بربه وعلاقته بالناس وعلاقته بالأشخاص وعلاقته بساحة القتال... إنها في النظرية الإسلامية كل مترابط، فإذا تفكك بعضه تهدم سائره، والقرآن الكريم صريح وواضح في ذلك.

﴿وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾(١).

إنّ معية الله للمؤمنين مشروطة بالتقوى:

﴿إِنَّ الأَرْضَ لِلّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾(٢).

---

(١) البقرة: ١٩٤.
(٢) الأعراف: ١٢٨.

﴿وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾[١].

﴿فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾[٢].

﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ﴾[٣].

فالشرط الذي يجب أن يتصف به الداعية إلى الله تعالى بعد الإيمان: التقوى، وأي تهاون في ذلك أو تسامح في حدود الله وحلاله وحرامه يسلب عنه صفة الداعية المؤمن، ويخرجه من حظيرة الدعاة إلى الله تعالى.

يقول أمير المؤمنين علي عليه السلام:

(إن التقوى دار حصن عزيز، والفسوق دار حصن ذليل)، فالتقوى تحمي صاحبه في حصن منيع من الشيطان ووساوسه، ومن أهواء نفسه وشهواته، وهي الخطوة الأولى

(١) التوبة: ٣٦.

(٢) هود: ٤٩.

(٣) الجاثية: ١٩.

من النصر فإن ميدان الداعية الأول نفسه، فإذا أنجز مهمته في هذا الميدان، واطمأن من نفسه، وجاهد نفسه تقع عليه مسؤولية الدائرة الصغيرة من الجهاد.

ومن عجب أن تكون ساحة الحياة والصراع القائم بين الكفر والإيمان هي الدائرة الصغيرة لجهاد المؤمن، وساحة النفس، والصراع القائم فيها بين التقوى والفجور، هي الدائرة الكبرى لجهاد المؤمن.

وصفة أخرى للعمل، الإخلاص:

فإنما يعمل الداعية لله، ويقاتل لله، ويتحمل ما يلاقيه في طريقه من العنت والعذاب لله... وهذا الشرط روح عمل الداعية، وجوهر عمله وقيمته. فإذا أدخل الشيطان في نفسه حب الدنيا والنزوع إلى شأن من شؤون الدنيا، وأفقده الإخلاص في عمله، فقد تمكن الشيطان من مصادرة عمله كله.

والله تعالى حيث يعد عباده الصالحين بالمعية الإلهية

والهداية يشترط أن يكون الجهاد من اجله تعالى وفي سبيل مرضاته عزّ وجلّ.

﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾(١).

ويحذرنا تعالى أن نكون نحن كالذين يخرجون من ديارهم بطراً، ورئاء الناس، إبتغاء متاع من متاع الحياة الدنيا من سلطان، ومال، وشأن غيره.

﴿وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَارِهِم بَطَرًا وَرِئَاء النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ وَاللّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾(٢).

الصفة الثالثة والرابعة الصبر والصلاة:

﴿اسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ إِنَّ اللّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾(٣).

---

(١) العنكبوت: ٦٩.

(٢) الأنفال: ٤٧.

(٣) البقرة: ١٥٣.

وهما من أهم شرائط العمل. فإن العمل في سبيل الله تعامل مزدوج في آن واحد مع الله ومع الناس.

وتعامل المؤمن مع الله صلاة، ومع الناس صبر.

ولابد له من أن يذكر الله تعالى ويكون على ذكر دائم، وصلة دائمة بربه عزوجلّ، وأن يفزع إلى الله بالدعاء فيما تعتري طريقه من عقبات، ومشاكل، وعوائق، تعوق تقدم الدعوة إلى الله، وفيما يوسوس الشيطان في نفسه. وهذا اللجوء إلى الله هو (الصلاة)، يمنح المؤمن قوة، وثقة، ويمدّه بإمداد متصل من ربه عز وجلّ، في طريقه الشائك.

واستمع معي إلى طرف من أدعية الدعاة إلى الله من الأنبياء وعباد الله الصالحين، فيما كان يُلمُّ بهم من متاعب وصعوبات في طريق ذات الشوكة.. من القرآن:

﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ

الْفَاتِحِينَ﴾[1].

وبإزاء تهديد فرعون يتضرع السحرة إلى ربهم بعد أن آمنوا:

﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾[2].

ويفزع قوم موسى إلى ربهم في محنتهم بفرعون:

﴿رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾[3].

﴿رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[4].

وهذا هو الطرف الأول: (الصلاة). والطرف الآخر التعامل مع الناس: (الصبر). إن الصبر في التعامل مع الناس، ومع

---

(١) الأعراف: ٨٩.

(٢) الأعراف: ١٢٦.

(٣) يونس: ٨٥-٨٦.

(٤) التحريم: ٨.

حقائق هذا الكون، وسنن الله تعالى في هذه الأرض.

فإن لله سنن في أرضه، وفي حياة الناس، وفي مسير التاريخ، وما لم يعرف الداعية هذه السنن، ولا يعرف مداخلها ومخارجها، وكيف يتعامل معها، فإنه يفشل في أداء مهمته.

إن الفرد، والمجتمع، والعقول، والعواطف، والاقتصاد، والسياسة، والحكم، والرأي العام، والحركة، والثورة، والمال، والإدارة، والتاريخ... وكل ما يتصل بعالم الإنسان يخضع لسنن إلهية ثابتة، كما تخضع الأشياء للسنن والقوانين الإلهية، وكما تخضع الجاذبية، والكهرباء، والبخار، وطبقات الأرض، والجبال، والبحار، والجزر، والمد، ونبات الأرض، لنواميس وقوانين إلهية ثابتة، كذلك عالم الإنسان بكل تعقيداته.

وما لم يعرف الداعية سنن الله تعالى في حياة الإنسان، والتاريخ، والفرد، والمجتمع لا يستطيع أن يؤدي مهمته الأداء الحسن المناسب، فإذا عرف هذه السنن، وأحسن معرفتها بما آتاه الله من نور، وبما يكتسب من تجربة وخبرة في حياته

العملية وخبرات وتجارب العاملين والمجاهدين من قبله... حقق شرطاً هاماً من شروط النصر، فلا بد أن يصبر على هذه السنن، ويعترف بها، ويعطي للزمان حقه ولمراحل العمل حقها الثابت.

فإن الفشل أقرب شيء إليه، لو لم يحاول أن يعرف سنن الله في حياة الإنسان، أو حاول أن يعاكس التيار، ويخترق السنن، ويتجاوز مراحل العمل، ويتناسى دور الزمن، ويتجاهل أنه يتعامل مع إنسان آخر له إرادته، ورغبته، وشخصيته، وتتحكم في تكوينه وشخصيته سنن إلهية ثابتة... تماماً كما يفشل الفلاح، لو أنه لم يعرف متى يزرع، وأين يزرع، ومتى يحصد. فإذا تغافل عن سنن الله في وقت الزرع أو وقت الحصاد أو مكان الزرع، فإنه لا يجني من عمله غير الخسران.

وفي رأيي أن الدعاة إلى الله تعالى لابد أن يلمّوا إلمامة كافية كاملة بتاريخ الدعاة إلى الله تعالى، وممارستهم، في

حياتهم، ومع الناس، منذ نبي الله نوحعليه السلام إلى عصرنا، وبصورة خاصة لابد أن يلمّوا إلمامة كافية بسيرة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ليعرفوا سنن العمل قبل كل شيء. ولابد أن يعيشوا مع الناس، ويتعاملوا مع الناس، ويقرأوا ويسمعوا، ويعملوا في صفوف الناس، ليعرفوا عن كثب سنن الله تعالى في حياة الإنسان...

ثم لابد أن يتزودوا بعد ذلك، بالصبر في التعامل مع الناس، والصبر في مواجهة الظالمين، والصبر في توعية المسلمين، والصبر في تحريكهم، وإعداد العدّة المادية والمعنوية لكل ذلك، وتحمُّل متاعب الطريق، وإعطاء الزمن دوره، والإعتراف بالزمن كعامل أساسي ـ في سنن الحياة ـ لنجاح العمل وتقدمه، والصبر على أخلاق الناس وكلامهم، والصبر على طول الطريق وبعد الشُّقة، والصبر على الأسلوب، والصبر على المرحلة، والصبر على تحديات الظالمين، ولابدّ لهم من الثبات، والإعداد، والإستقامة، والإستمرار، والنفس

الطويل الواثق في العمل.

وطبيعي أن هذه المراحل الشاقة من العمل والصبر، لا يمكن أن يجتازها الداعية وحده. فالطريق أبعد من أن يقطعها الداعية إلى الله وحده، والحمل أثقل من أن يحمله الداعية وحده، فلابد من أن يكون مع الله، ليكون الله معه، وليخفف عنه ثقل العمل، ويقرِّب له الطريق الطويل...

ولابد له إذن من الصلاة، ولابد من أن يفزع إلى الله، ليكون معه في الطريق الشائك، ولابد أن يقترن الصبر بالصلاة، ليصل الغاية في مسيره، بمعية الله تعالى.

﴿**اسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ إِنَّ اللّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ**﴾[1].

فإذا استقام الدعاة إلى الله تعالى على الطريق الصعب، وصبروا، فإن النصر لن يتخطاهم، ورحمة الله تعالى لن تعدوهم.

---

(١) البقرة: ١٥٣.

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا﴾(١).

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾(٢).

واقرأ معي كيف يؤدب الله تعالى نبيه بأدب النبوّة، ويعلمه ألا يستعجل في طريق الدعوة، ويتعلم الصبر ممن سبقه من أولي العزم من الأنبياء:

﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾(٣).

ومن قوم موسى المستضعفين جعل الله تعالى أئمة وقادة أورثهم سلطان فرعون بما صبروا:

---

(١) فصلت: ٣٠.
(٢) الأحقاف: ١٣.
(٣) الأحقاف: ٣٥.

﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا﴾[١].

ويأمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يتّبع ما يوحى إليه، ويصبر مع قومه، وينتظر حكم الله:

﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللّهُ﴾[٢].

وأحوج ما يكون الداعية إلى الصبر عندما تطول المحنة، وتقسو، فيستخفّه الذين لا يوقنون بالله:

﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لا يُوقِنُونَ﴾[٣].

وحبذا لو توقفنا لحظات عند هذه النقطة من البحث، فهي من أهم النقاط التي يعاني منها المؤمنون الدعاة، على اختلاف شعوبهم، وأوساطهم، في هذه الفترة القاسية، من تاريخهم، ويحتاج فيها المؤمنون إلى وعي إعتقادي لطبيعة

---

(١) السجدة: ٢٤.

(٢) يونس: ١٠٩.

(٣) الروم: ٦٠.

المرحلة القاسية التي يمرون فيها. ونشير بهذا الصدد إلى نقطتين مهمتين:

١ـ إن فترة الابتلاء قد تطول على المؤمنين، وقد تكون قصيرة، وطول الفترة وقصرها يخضع لمستوى الإيمان والعمل الذي تقدمه الأمة المؤمنة، ولقوانين إلهية أخرى لا نعرفها، وقد تقسو المحنة والفتنة بالمؤمنين، وعادة تعتبر هذه القسوة مخاضاً للنصر، تنتبه خلالها الأمة، القطاعات الواسعة من الأمة، وتستقطب فيها الطلائع المؤمنة المجاهدة عطف الأمة وثقتها خلال هذه المحنة. والأمة تمنح عطفها وثقتها للعاملين في حالة المحنة، أكثر مما تعطيها في حالة اليسر والرخاء.

ومخاض النصر (المحنة) قد يكون قاسياً على المؤمنين، وليس عليهم فحسب، وإنما على ذويهم أيضاً، من آبائهم، وأمهاتهم، وزوجاتهم، وأبنائهم، وأقاربهم الآخرين.

وقبل أن نسترسل في إكمال الموضوع أود أن ألفت نظر

المـؤمنين إلـى ضـرورة وأهميـة الإعـداد الـداخلي لأسـرهم وعوائلهم، فإن المحنة لا تكاد تصيبهم وحدهم، وإنما تصيب عوائلهم وأُسرهم أيضا، فان كـانوا لـم يعـدوا مـن قبـل أفـراد أُسـرتهم لمثـل هـذه الفتـرات القاسـية فـإن خطـر التسـاقط والانهيار في داخل أفراد العائلة المؤمنة ليس ببعيد، وطبعـاً لا نريد أن نغفل عنصر الإمـداد الإلهـي الغيبـي للعوائـل والأسـر الممتحنة، في معنوياتها، وحياتها المادية، ولكن ذلك لا يعني أن الداعية لا يعد أفراد أسرته لمثل هذه الحالات القاسية التي تمر عليهم من قبل، ليحميهم من التساقط والانهيار، فإن الفتنة سيف ذو حدين، وسلم يصعد منه نـاس إلـى الله، ويهـبط منـه آخرون إلى الشيطان.

فلكي تكون هذه المحنة في حياة العاملين وأسرهم سـلماً صاعداً لابـد أن يتفرغـوا لإعـداد عـوائلهم وأسـرهم، إعـداداً داخلياً، قوياً، من قبل.

ونقطع الحديث عن هـذه النقطـة ونعـود مـرة أخـرى إلـى

صلب الموضوع فأقول: إن فترة المحنة قد تطول وتقسو، ولكن لا ينبغي أن تتناول المحنة إيمان العاملين في سبيل الله بالنصر والتأييد الإلهي في حال من الأحوال، فإن النصر الإلهي حقيقة إيمانية في نفس الداعية، وحقيقة كونية في مشيئة الله تعالى، لن تتبدّل، ولن تتغير.

وقد يعيش العاملون في سبيل الله في ذروة محنة من هذه المحن القاسية التي مرت على الأنبياء، والمرسلين، وعباد الله الصالحين، وجرت بعد ذلك سنّة ثابتة لله، فيكاد الشيطان أن يمس إيمانهم بالنصر، ويزلزل من ثباتهم وثقتهم بالله وهم لا يعلمون أن النصر قريب وشيك منهم، وقد يكون في اللحظات الأخيرة من مخاضه العظيم.

﴿مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء وَزُلْزِلُواْ حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللّهِ

قَرِيبٌ﴾[1].

ويحدثنا القرآن الكريم عن السنة الإلهية في حياة العاملين في توقيت النصر، وضخامة الفتنة والمحنة، قبل النصر، وفي حال مخاضه، فيقول:

﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَاءهُمْ نَصْرُنَا﴾[2].

قد يكون النصر قريباً من المؤمنين، ولكن الله تعالى أخفى علمه عنهم لحكمة له تعالى في ذلك، وقد يكون النصر حاصل بين عشية وضحاها، ولكن الله تعالى حجب علمه عن المؤمنين ليمتحنهم في محنتهم. فلا ينبغي إذن أن تنال المحنة من إيمان العاملين وثقتهم بالنصر، ولا ينبغي أن يتسرب اليأس إلى روحهم في حال من الأحوال.

---

(١) البقرة: ٢١٤.

(٢) يوسف: ١١٠.

﴿وَلاَ تَيْأَسُواْ مِن رَّوْحِ اللّهِ إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾[١].

٢ـ إن حالة المخاض، وهي المحنة، في حسابات البشرية طريق إلى النصر، وفي حساب الله تعالى غاية قائمة بذاتها، بل هي غاية الغايات، في تكامل المؤمنين العاملين.

إن هذه المحن قد تطول، وتقسو، ليعلم الله تعالى ـ وهو العالم ـ الذين جاهدوا من المؤمنين، والذين صبروا تحت وطأة المحنة.

﴿مَّا كَانَ اللّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىَ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾[٢].

فإن الإسلام في حياة الناس فصل وفرقان بين الحق والباطل، وفصل وتمييز بين الخبيث والطيب، ولا يفرّق بين

---

(١) يوسف: ٨٧.
(٢) آل عمران: ١٧٩.

الطيب والخبيث، ولا يميزهما عن بعض أمر أفضل من هذه المحن التي تتعرض لها الأمة، فيصعد قوم، ويهبط قوم آخرون.

ومن هذا الصراع بين الحق والباطل، وبين جبهة التوحيد والشرك، يطيب قوم، ويخبث آخرون.

إذن فهذه المحن هي السلّم الإلهي لتكامل المسلمين العاملين في سبيل الله، وطريق الكمال طريق شائك وعسير، ولا يتكامل المؤمن في الرخاء واليسر، وإنما يتكامل في العسر والفتنة والمحنة.

انه يتكامل تحت السياط والتعذيب وفي ظروف الهجرة القاسية، أكثر مما يتكامل في أي وقت آخر.

ويئن العاملون تحت وطأة المحنة، ويستغيثون، وكل ذلك بعين الله تعالى وسمعه.

ولقد قلت من قبل: لوان الداعية كان يعلم أن اليد التي تعصر قلبه يد ارحم الراحمين لخفّت عليه المحنة، وهان عليه

أن ينشر بالمناشير، إذا كان ذلك بعين الله، وبإرادته، ورضاه، وفي سبيل مرضاته، وطريقه الذي يسلكه إلى الله تعالى.

فهذه المحن هي الطريق إلى الجنة، وهي المدارج التي يصعدها الداعية لتزكية نفسه وتطهيرها، وتكميل نفسه، والقرآن الكريم صريح وواضح في هذه الحقيقة، أيّما صراحة ووضوح:

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللّهُ الَّذِينَ جَاهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾(١).

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُواْ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللّهُ الَّذِينَ جَاهَدُواْ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ اللّهِ وَلاَ رَسُولِهِ وَلاَ الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾(٢).

إنها لسذاجة في نفوس الناس أن يتصوروا أن الجنة،

---

(١) آل عمران: ١٤٢.

(٢) التوبة: ١٦.

بمنازلها الرفيعة ميسرة لكل أحد صام وصلّى، دون أن يمتحنه الله في إيمانه، ويعلم المجاهدين منهم والصابرين، على ما للصلاة وللصيام من قيمة عظيمة ومقام رفيع عند الله.

وأنها سنَّة لله تعالى قديمة، فلن تشذ هذه الأمة عن الأمم السابقة، ولن يشذ الدعاة في عصرنا، فيما يتعرضون له من محن وفتن عن الأنبياء، والأولياء، وعباد الله الصالحين، والمجاهدين من قبل، فيما مسّهم من البأساء والضراء.

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء﴾[١].

ولو أن العاملين كانوا يعلمون بموقعهم من الله، وما يحيطهم من رحمة الله، وهم في ظروف المحنة القاسية، ولو كانوا يعلمون وهم ثابتون، لا يتزلزل لهم قلب، تحت وطأة المحنة: إن ملائكة الله تتباهى بهم، وتهنؤهم، لخفت المحنة

---

(١) البقرة: ٢١٤.

عليهم، وآثروا أن تقطع أعضاؤهم في سبيل الله وتطول بهم هذه المحنة حتى يأذن الله لهم بالفرج.

ولو أنهم كانوا يعلمون أن هذه المحن القاسية التي يمرون بها هي النصر الحقيقي لهم، وهي تعدهم للغاية التي من أجلها خلقوا، وتسلك بهم سبيلا صعداً إلى الجنة لم تثقل المحنة عليهم.

إن الغاية والنصر الحقيقي في حساب الله في هذه الحياة هي هذه المحن، إذا خرج منها المؤمنون العاملون منتصرين، لم يتزلزلوا، ولم يضطرب لهم قلب، وأما النصر في الساحة فهو فرحة فقط. وشتان ما بين حساباتنا وحسابات الله تعالى.

واستمعوا معي إلى هذه الآية المباركة من كتاب الله:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن

تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾(١).

ونقف وقفة قصيرة عند هذه الآية المباركة... إن الفوز العظيم هو المغفرة والجنة التي تجري من تحتها الأنهار والمساكن الطيبة في جنات عدن، والطريق إلى هذا الفوز: الإيمان والجهاد بكل متاعبه ومشاقه وببذل الأنفس والأموال. ذلك الخير، ذلك الفوز، ذلك النصر.

وأما الفتح الذي نحبه نحن، ونفرح به، فهو حاصل بالتأكيد، وهو قريب إن شاء الله، ويبشرنا به الله تعالى:

﴿نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾(٢).

ولا ينبغي أن نشك فيه، ولا يخلف الله وعده، ولكنّه فرحة

---

(١) الصف: ١٠ـ١٣.

(٢) الصف: ١٣.

فقط، نحبّها،وأمّا الفوز العظيم فهو أمر آخر، إنـه المحنـة، إنـه حالة مخاض النصر، انه الغاية من المخاض،

ولسـت أريـد أن أقـول أن مـا يكسـبه العـاملون فـي فتـرة المخاض لا تقل قيمة عما يكتسبه العاملون فـي حالـة النصـر، بل أقول: إنه هو الفوز العظيم في هذا المخاض، وما النصر إلاّ فرحة، يحبها المؤمنون، ويبشرنا بها الله تعالى.

وقد قلت من قبل، إن المحنـة سلَّم صـاعد ونـازل، وكمـا يصعد منه ناس بتوفيق الله، يهبط منه ناس بإغواء الشيطان، ولا يفارق تأييد الله تعالى القلة المؤمنة في محنتهم، ولكنهـا علـى كـل حـال قاسـية وصـعبة، وبحاجـة إلـى كثيـر مـن الصـبر، والتـوأدة، والثبـات، وذكـر الله كثيـراً، فـإن ذكـر الله يبعـث الطمأنينة والسكينة في القلوب.

﴿الَّذِينَ آمَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللّهِ أَلاَ بِـذِكْرِ اللّـهِ

تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾[١].

كما أن معايشة الأنبياء والمرسلين والدعاة إلى الله تعالى من السلف الصالح في حياتهم ومحنتهم، تبعث الطمأنينة والثبات في القلوب. ولقد كان الله تعالى، يثبّت فؤاد نبيه صلى الله عليه وآله بما يحكى له من قصصهم ومحنهم وثباتهم على القول الحق:

﴿**وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاء الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ**﴾[٢].

جاء النصر

وبعد فقد جاء النصر، والحمد لله، في رقعة مباركة من رقاع العالم الإسلامي العريض، وحقّق الله وعده، وله الحمد ملء السماوات والأرضين، وعدد أنفاس الخلائق، وله الشكر

---

(١) الرعد: ٢٨.

(٢) هود: ١٢٠.

فوق شكر الشاكرين، وكما يحب تعالى ويرضى.

جاء النصر في هذه الرقعة الإسلامية بعد مخاض، قاس، شديد، ومحنة قاسية، ثبت فيها أناس، ولله الحمد، وتساقط فيها آخرون، ونستغفر الله، وثبت فيها المؤمنون حيناً، ولله الحمد، وزلزلوا فيها حيناً، ونستغفر الله. ولسوف يتوالى النصر، إن شاء الله، متلاحقاً، مباركاً، متوالياً...

فقد انتهت فترة الظلمة، أو كادت أن تنتهي، وانقطع نفس الاستعمار والشيطان والطغاة، وثبت أن نفس المؤمنين في المعركة أقوى وأطول من نفس الكافرين، ذلك أن:

﴿اللّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّوُرِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ أَوْلِيَآؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[١].

---

(١) البقرة: ٢٥٧.

وفي نهاية هذه المرحلة القاسية من المحنة نعود إلى الله تعالى لنشكره، ونعتذر، شكراً على ما أنعم علينا من الرحمة، واعتذاراً مما سبق منا في مرحلة الفتنة من الضعف، واليأس، والتقاعس، والزلل، وهو الحميد الغفور.

أجل فترة المحنة، هي أصعب فترات التعامل مع الله، وأشدها وقعاً على المؤمنين، وأكثرها أخذاً وعطاءً في التعامل معه عزّ وجلّ.

وقد سبق من المؤمنين العاملين في هذه الفترة كثير من الزلل، والضعف، والخوف، وكادوا أن يجنحوا إلى اليأس، وكادت قلوبهم أن تميل إلى الراحة والعافية، تحت ضراوة المحنة، وزلزلوا، أحياناً، وتعثروا أحياناً أخرى، وكادوا أن يستسلموا لتشكيك المشككين، وتثبيط المثبطين، عندما طالت عليهم الفتنة، وبعدت عليهم الشُّقة... ولكن الله تعالى ثبّتهم، وطمأنهم، وأمدهم بالقوة والإيمان، وأراهم آياته البيّنات، في يقظتهم، وأحلامهم، ومسكهم من الزلل، وأقالهم

من عثراتهم، وأعاد إليهم النافر من قلوبهم، وزجر عنهم الشيطان، وأبقاهم تحت المحنة ما تحمّلوا، فإذا نفذ صبرهم أعمى عنهم عيون أعدائهم واصمّ أذانهم وكمم أفواههم.

ولقد كانوا، برحمة الله، يرون الله تعالى شاهداً، وسامعاً وهم تحت السياط، فيخفّ عليهم وقع التعذيب، ويمرون أحياناً على مرأى ومسمع الجلاوزة ورجال الأمن من أعدائهم فلا يرونهم برحمة الله.

ولقد كانوا يخطأون الخطأة، ويعثرون العثرة، فيسددهم الله. ولقد كانوا يتركون عوائلهم فارين، مهاجرين، أو مقبوضاً عليهم بلا مؤن، ولا حيلة، ولا رزق، فيرزقهم الله.

ولقد كانوا يخافون في غياهب السجون، وفي مآسي الهجرة أن تنحرف عوائلهم. أو كانوا يجزعون لفراقهم، فتعود إليهم عوائلهم أو يعودون إليهم، فيرون أن الله تعالى قد أسبغ عليهم رحمته وحمايته وتسديده في غيابهم.

ولقد كانوا يهاجرون إلى بلاد نائية، يفقدون فيها الأمن،

والمـــال، والأهـــل، فيـــرزقهم الله الأمـــن، والمـــال، والأهـــل، والأصدقاء.

ولقد كانوا يخشون على إيمانهم أن يتزلزل، ومن أنفسهم أن يتساقطوا تحت وطأة التعذيب، فيمدهم الله بالإيمـان علـى إيمانهم، وبالنور على نورهم، وبالقوة على قوتهم التي آتـاهم من قبل.

ولقد كانوا يخشون ألا تتحمل أجسـادهم قسـوة العـذاب، فيرزقهم القوة، والصبر، والجلد في إيمانهم.

ولقد كانوا يخافون أن يتعرض الطاغية لأعراضهم، فتظلمّ الدنيا فـي أعيـنهم، فيعمـي الله عيـون أعـدائهم عـن عـوائلهم، وأعراضهم، ولا يمسونهم بسوء أو شر.

ولقد كانوا يخافون أن يتركوا من ورائهم آباءاً عـاجزين، وأمهات عجزة، وأبناءاً صغاراً، ونساءاً لا حيلة لهم في العـيش من بعدهم، فيعطف الله عليهم قلوب قوم مؤمنين، فيواسـونهم في أرزاقهم، ويقاسمونهم لقمة عيشهم.

الحمد لله، الحمد لله، الحمد لله، الحمد لله، عدد أنفاس الخلائق، الحمد لله فوق حمد الحامدين، والحمد لله عدد قطر الماء، والحمد لله كلما حمد الله حامد، وكلما سبّح الله مسبح، والحمد لله عدد الرمل والحصى، والحمد لله عدد أمواج البحار، والحمد لله كلما هبَّت ريح، والحمد لله كلما شرق شارق وكلما غرب غارب، والحمد لله كما يحب ويرضى.

ونستغفر الله مما سبق منا من زلل، وخوف، وميل إلى اليأس والدنيا، ونستغفر الله كلّما هجس في نفوسنا هاجس إنَّ الله تعالى قد تخلّى عنا، ونستغفر الله من حب الراحة والعافية.

نستغفر الله من سقطات أعمالنا، ومن كبائر ذنوبنا وصغائرها.

﴿رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَآ

أَنتَ مَوْلاَنَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾(١).

أجل شكر، واعتذار، وحمد، واستغفار في نهاية هذه المرحلة من التعامل مع الله تعالى.

ولنقرأ معاً هذه الآيات البيّنات من كتاب الله تعالى، ونختم به هذا الحديث فمسك الختام كلام الله.

﴿بِسْمِ اللّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * إِذَا جَاء نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾(٢).

﴿هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾(٣).

---

(١) البقرة: ٢٨٦.

(٢) سورة النصر.

(٣) الأحزاب: ٢٢.

الفهرس